

الفصل الخامس عشر

سريّة عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد^(١) بفدك

شعبان ٥٦هـ / ديسمبر (كانون أول) ٦٢٧م / كيهك ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول

عرض سريّة عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد بفدك

التعريف بفدك:

يقول د/ بريك: «فدك - بفتح أوّله، وثانيه، وقيل: بالفتح، وقيل: بالتحريك، وآخره كاف، قال ابن دريد: فدّكت القطن تفديكاً إذا نفشته، وفدك: قرية بالحجاز.

قال عياض: هي على يومين، وقيل: ثلاثة من المدينة، وأقرب الطُّرق من المدينة إليها من النّقرة مسيرة يوم على جبل، يُقال له الحبالّة والقذال، ثمّ جبل يُقال له: جُبار، ثمّ يربّع، وهي قرية لولد الرّضا، وهي كثيرة الفاكهة والعيون، ثمّ تركب الحرّة عشرة أميال، فتَهبط إلى فدك.

قال الأصمعي: حرّة النّار فدك. وطريق أخرى، وهي طريق مُصدّق بني ذبيان وبني محارب من المدينة إلى القصّة، وهناك تُصدّق بنو عوال من بني ثعلبة بن سعد، ثمّ ينزل نخلاً، فتُصدّق الخضر خضر محارب، ثمّ ينزل المغيثة فتُصدّق سائر بني محارب، ثمّ الثّامليّة لأشجع، ثمّ الرّقميتين لبني الصّادر، ثمّ مرتفعاً لبني قتال بن يربوع، ثمّ فدك، ثمّ الحراضة، ثمّ خير، وفي فدك عين فوّارة ونخيل كثيرة، وحصن فدك يُقال له: الشمروخ، وقيل: سُمّيّت بفدك بن حام لأنّه أوّل من نزلها. وذكر البكري أنّ أكثر أهلها أشجع».

وقال ياقوت: «كان أهلها يهود (ربّما كان يسكنها اليهود، وقبيلة أشجع، معاً، أو أنّ اليهود كانوا هم سُكّان المدينة، وقبيلة أشجع كانوا يسكنون حول المدينة ويشتركون مع يهودها بحلف مثل بقية القبائل الغطفانية الأخرى)، فلما فتحت خيبر طلبوا من النّبي ﷺ الأمان على أن يتركوا له البلد، فكانت له خاصّة، لأنّها ممّا لم يُوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل، وفي رواية: «أنّهم صالحوه على النصف، ولم يزل أهلها بها حتى أجلى عمر ﷺ اليهود فوجّه إليهم من قوّم النصف، وعوّضهم عنه، وأجلاهم إلى الشام».

ولما قبض رسول الله ﷺ قالت فاطمة رضي الله تعالى عنها: «إنّ رسول الله ﷺ نحلنيها (النّحل: هو العطاء بلا عوض)، فقال أبو بكر الصّدّيق ﷺ: أريد لذلك شهوداً، ولها قصّة، ثمّ أدى اجتهد عمر بن الخطّاب ﷺ بعده لئلاّ فتحت الفُتوح وأنّسعت على المسلمين أن يردّها إلى ورثة رسول الله ﷺ، فكان عليّ بن أبي طالب ﷺ، والعبّاس بن عبد المطلب ﷺ يتنازعا فيها، ويتخاصمان إلى عمر ﷺ، فيأبى أن يحكم

(١) اسم سعد يطلق على عدة قبائل منهم العدنانية والقحطانية، وأما هؤلاء فهم (على ما يظهر) بنو سعد بن ثعلبة، بطن من ذبيان ثم من غطفان العدنانية.

بينها، ويقول: «أَنْتُمْ أَعْرَفُ بِشَأْنِكُمَا»، وَلَمَّا وَلِيَ معاوية ﷺ أَقْطَعَهَا مروان بن الحكم، ووهبها مروان لابنيه عبد الملك، وعبد العزيز، ثم صارت للوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وَلَمَّا وَلِيَ الوليد استوهبا منه عمر بن عبد العزيز، فكانت له خَالِصَةً تَعْلَلُ له عشرة آلاف دينار، وكانت مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ حينما وَلِيَ الخلافة، كَتَبَ إِلَى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها، فَلَمَّا وَلِيَ يزيد بن عبد الملك قبضها، فلم تزل في أيدي بني أُمَيَّةَ حتى وَلِيَ السَّفَّاحُ الخلافة فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، فكان هو الْقَيْمُ عَلَيْهَا يُعَرِّفُهَا في بني علي بن أبي طالب ﷺ، فَلَمَّا وَلِيَ المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم، فَلَمَّا وَلِيَ المهدي أعادها عليهم، ثم موسى الهادي وَمَنْ بعده إلى أيام المأمون، فجاءه رسول بني علي بن أبي طالب ﷺ فطالب بها، فأمر أَنْ يُسَجَّلَ لَهَا، فَكُتِبَ السَّجَلُ وَقُرِئَ عَلَى المأمون، فقام دعبل الشاعر وأنشد:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا

وَلَمَّا استخلف جعفر المتوكل رَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ في عهد رسول الله ﷺ، وَأَبَى بكر الصديق ﷺ. وفدك: «قرية مشهورة، وقد استغرب مجد الدين الفيروزآبادي الذي عاش في القرن الثامن، والسهمودي في القرن التاسع، عدم معرفة أهل المدينة لها في ذلك الوقت على شهرتها، فربَّما كان ذلك بسبب خرابها، فقد ذكر الحلبي الذي عاش في القرن العاشر أَنَّهَا كانت خرابًا في عهده، أو ربَّما لَتَغْيُرَ اسمها، ففدك اليوم تُعْرَفُ بالحائط، وتقع ضمن نطاق منطقة حائل الإدارية بين محافظة الحليفة ومحافظة خيبر، وجُلُّ أَهْلِهَا اليوم هم من قبيلة الرشيدة».

[ينظر: معجم ما استعجم للبكري ٣/ ١٠١٥-١٠١٦، معجم البلدان للحموي ٤/ ٢٣٨-٢٤٠، الروض المعطار للحميري ٤٣٨، وفاء الوفاء للسهمودي ٤/ ١٢٨٠-١٢٨١، والسيرة الحلبية ٣/ ١٨٥، معجم البلادي ٢٣٥]. هذا ومن الملاحظ أَنَّ منطقة عمليات السرايا لم تكن قرية فدك ذاتها، وَإِنَّمَا المنطقة المحيطة بها، والتي كانت تسكنها قبيلة بني مَرَّةَ، وقبيلة بني سعد بن بكر، ولكن باعتبار قربها من فدك تجوَّزَ أهل المغازي بنسبتها إليها.

قال الحلبي، والزرقاني، تعليقًا على أَنَّ بشير بن سعد ﷺ قائد السرية، تحامل على نفسه - حينما أُصِيبَ هو وَمَنْ معه - حَتَّى أَتَى فدك فأقام بها أيامًا حَتَّى ارتفع من الجراح، قالوا: «وهذا يدل على أَنَّ بني مَرَّةَ الذين توجَّهَ إِلَيْهِمْ بشير لم يكونوا بفدك، بل بالقرب منها، فتسمَّحوا في قوْطِهِمْ إِلَى بني مَرَّةَ بفدك لمجاورتها وكونها من أعمالها». [السيرة الحلبية ٣/ ١٩٢، شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٣٥٠].

وكذلك الأمر بالنسبة لسرية علي بن أبي طالب ﷺ إِلَى بني سعد. [غزوة مؤتة لبريك ١١٥-١١٨].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «ذكر ابن إسحاق خبر السرية مقتضبًا في جملة السرايا؛ لذلك لم يذكر لها تاريخًا محدَّدًا، وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا بعد سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إِلَى بني الملوخ.

وانفرد الواقدي، وابن سعد، بالإسهاب في الحديث عن خبر السرية كعادتهما، نقلًا عن شيوخهما، فكان من الطبعي أن يذكرها لها تاريخًا محدّدًا حيث ذكرا أنها كانت في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ. وذكرها خليفة بن خياط كذلك ضمن السرايا التي كانت سنة ست من الهجرة، دون أن يحدّد الشهر الذي أرسلت فيه.

ونقل الطبري، وابن القيم، وابن كثير، حديث الواقدي عنها في أحداث السنة السادسة، دون تعليق منهم على ذلك، وكذلك ابن سيد الناس نقلًا عن ابن سعد. واقتصر الشامي على رواية الواقدي، لكنّه لم يذكر شيئًا في شرحه عن تاريخ السرية. أمّا القسطلاني، والمقرئزي، فإنّهما تابعا الواقدي، وابن سعد في روايتهما. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشبالية لبريك ١١٩-١٢٠].

أحداث السرية:

يقول أبو بوشمير: «هي دورية عسكرية كبيرة قام بها علي بن أبي طالب عليه السلام لبث الرعب في قلوب قبائل بني سعد بن بكر بفدك، وكان عدد رجال هذه الدورية مائة فارس، أعطى النبي ﷺ قيادتهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام، وأمره بأن يغير علي بن سعد بعد أن تلقى ﷺ من استخباراته أن بني سعد قد قرروا أن يساندوا يهود خيبر ويمدوهم بالرجال مقابل أن يعطي اليهود هذه القبيلة جزءًا كبيرًا من تمر خيبر. وهذا يدل على أن اليهود كانوا يستعدون (منذ زمن طويل) للغزو المنتظر الذي قام به النبي ﷺ أخيرًا لخيبر، فأخضعها وأنهى الوجود اليهودي فيها، كما يأتي تفصيله إن شاء الله في غزوة خيبر ٧ هـ. وقد تحرك علي بن أبي طالب عليه السلام بدوريته المسلحة، واستمر في تحركه ستة أيام يكمن فيها ليلاً ويسير نهارًا.

وفي اليوم السابع، وصل علي عليه السلام بدوريته مشارف (فدك)، وهناك وجد رجلًا (لم يذكر المؤرخون اسمه) فسأله عن العدو من بني سعد، فخاف الرجل، فطمأنه قائد الدورية علي عليه السلام بأنهم لا يريدون به شرًا، فاستوثق لنفسه قائلاً: أخبركم عن مكان القوم على أنكم تؤمنوني، فأعطوه الأمان، فأرشدتهم إلى الوادي الذي تتجمع فيه بنو سعد.

فأغار عليهم الإمام علي عليه السلام برجال دوريته، وكان على رأس العدو (وبر بن عليم) ولم يثبت بنو سعد بالرغم من كثرة عددهم) أية مقاومة.

بل كان همهم النجاة بأنفسهم، ففروا ومعهم النساء والأطفال فقط، وتركوا مواشيهم، فاستولى عليها رجال دورية علي بن أبي طالب عليه السلام.

وكانت خمسمائة بعير وألفي شاة، قسمها القائد علي ﷺ على رجال دوريته كما تقسم الغنائم بعد أن عزل الخمس منها ليوضع تحت تصرف النبي ﷺ ورئيس الدولة ليدخرها لنوائب المسلمين كما هو المتبع، ثم عاد علي ﷺ بدوريته إلى المدينة دون أن يلقى كيذاً.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُثْبَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا ﷺ فِي مِائَةِ رَجُلٍ إِلَى حَيِّ سَعْدٍ بِفَدْلٍ، وَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هُمْ جَمْعًا يَرِيدُونَ أَنْ يَمْدُدُوا يَهُودَ خَيْبَرَ، فَسَارَ اللَّيْلَ وَكَمَنَ النَّهَارَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْهَمَجِ (ماء بين خيبر وفدك) فَأَصَابَ عَيْنًا فَقَالَ: «مَا أَنْتَ؟ هَلْ لَكَ عِلْمٌ بِمَا وَرَاءَكَ مِنْ جَمْعِ بَنِي سَعْدٍ؟»، قَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهِ، فَشَدُّوا عَلَيْهِ فَأَقْرَأَهُ عَيْنٌ هُمْ بَعَثُوهُ إِلَى خَيْبَرَ، يَعْزِضُ عَلَى يَهُودِ خَيْبَرَ نَصْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا هُمْ مِنْ تَمَرِهِمْ كَمَا جَعَلُوا لِغَيْرِهِمْ وَيَقْدُمُونَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: فَأَيْنَ الْقَوْمُ؟ قَالَ: تَرَكْتُهُمْ وَقَدْ تَجَمَّعَ مِنْهُمْ مِائَتَا رَجُلٍ وَرَأْسُهُمْ وَبَرٌّ ابْنُ عَلِيٍّ، قَالُوا: فَسِرْ بِنَا حَتَّى تَدُلَّنَا، قَالَ: عَلَى أَنْ تُؤْمِنُونِي، قَالُوا: إِنْ دَلَلْنَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَرِحِهِمْ أَمْنًا، وَإِلَّا فَلَا أَمَانَ لَكَ، قَالَ: فَذَلِكَ فَخَرَجَ بِهِمْ دَلِيلًا هُمْ حَتَّى سَاءَ ظَنُّهُمْ بِهِ، وَأَوْفَى بِهِمْ عَلَى فِدَايِدِ (الفدغد: الفلاة، والمكان الصلب الغليظ المرتفع) وَأَكَامَ (الأكمة - محرّكة: التل من القف من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، أو الموضع يكون أشدَّ ارتفاعاً بما حوله، وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجراً)، ثُمَّ أَفْضَى بِهِمْ إِلَى سُهُولَةٍ فَإِذَا نَعَمٌ كَثِيرٌ وَشَاءٌ، فَقَالَ: هَذَا نَعْمُهُمْ وَشَاؤُهُمْ، فَأَعَارُوا عَلَيْهِ فَصَمُّوا النَّعَمَ وَالشَّاءَ، قَالَ: أُرْسِلُونِي! قَالُوا: لَا حَتَّى نَأْمَنَ الطَّلَبَ، وَنَذَرَ بِهِمُ الرَّاعِي رِعَاءَ الْغَنَمِ وَالشَّاءِ، فَهَرَبُوا إِلَى جَمْعِهِمْ فَحَذَرُوهُمْ، فَتَقَرَّقُوا وَهَرَبُوا، فَقَالَ الدَّلِيلُ: عَلَامَ تَحْسِبُنِي؟ قَدْ تَقَرَّقَتِ الْأَعْرَابُ وَأَنْذَرَهُمُ الرَّعَاءُ، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لَمْ نَبْلُغْ مَعْسَكَرَهُمْ، فَانْتَهَى بِهِمْ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرِ أَحَدًا، فَأَرْسَلُوهُ وَسَاقُوا النَّعَمَ وَالشَّاءَ، النَّعَمَ خَمْسِمِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَلْفًا شَاةً.

حَدَّثَنِي أَبُو بَرٍّ بْنُ الْعَلَاءِ عَنْ عَيْسَى بْنِ عَلِيْلَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: إِنِّي لِبَوَادِي الْهَمَجِ إِلَى بَدِيعِ (أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، ويذكر البلاذري أنها تُسَمَّى اليوم: الحويط. البكري: معجم ٤/ ١٤٤، البلاذري: رحلات ١٩. غزوة مؤتة لبريك ١٢٥) مَا شَعَرْتُ إِلَّا بِبَنِي سَعْدٍ يَحْمِلُونَ الطُّعْنَ وَهُمْ هَارِبُونَ، فَقُلْتُ: مَا دَهَأَهُمُ الْيَوْمُ؟ فَدَنَوْتُ إِلَيْهِمْ فَلَقِيتُ رَأْسَهُمْ وَبَرَّ بْنَ عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الْمَسِيرُ؟ قَالَ: الشَّرُّ، سَارَتْ إِلَيْنَا جُوعٌ مُحَمَّدٍ، وَمَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قَبْلَ أَنْ نَأْخُذَ لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَقَدْ أَخَذُوا رَسُولًا لَنَا بَعَثْنَاهُ إِلَى خَيْبَرَ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَنَا، وَهُوَ صَنَعَ بِنَا مَا صَنَعَ، قُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: ابْنُ أَخِي، وَمَا كُنَّا نَعُدُّ فِي الْعَرَبِ قَتَى وَاحِدًا أَجْمَعَ قَلْبٍ مِنْهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ أَمْرًا قَدْ أَمِنَ وَغَلِظَ، أَوْفَعَ بِمُرِيشٍ فَصَنَعَ بِهِمْ مَا صَنَعَ، ثُمَّ أَوْفَعَ بِأَهْلِ الْخُصُونِ يَشْرَبُ، فَيَنْقُاعُ وَبَنِي النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى هَؤُلَاءِ

بِخَيْرٍ، فَقَالَ لِي وَبَرَ: لَا تَخْشَ ذَلِكَ! إِنَّ بَهَا رَجَالًا، وَحُصُونًا مَنِيعَةً وَمَاءً وَاتِنًا (وتن الماء: أي دام ولم يتقطع)، لَا دَنَا مِنْهُمْ مُحَمَّدٌ أَبَدًا، وَمَا أَحْرَاهُمْ أَنْ يَغْزُوهُ فِي عَقْرِ دَارِهِ، قُلْتُ: وَتَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: هُوَ الرَّأْيُ هُمْ، فَمَكَثَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَسَمَ الْغَنَائِمَ وَعَزَلَ الْخُمُسَ وَصَفَّى (الصَّفِيُّ: ما كان خالصًا للنبي ﷺ) النَّبِيَّ ﷺ لِقَوْحًا (الناقة الحلوب) تُدْعَى الْحَفْدَةَ قَدِمَ بِهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٢-٥٦٣].

مصادر ومراجع للدراسة:

- أ - كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٢-٧٢٣.
- ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٦٢-٥٦٣، الطبقات لابن سعد (٢٣٠هـ) ٢/ ٨٦، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٦٤٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٤-٨٥، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٥، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٢/ ٢٨٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٢، إمتاع الأسع للمقرئزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٩-٢٧٠، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٥٤-١٥٦.
- ج - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله (٤٧٣-٤٧٤هـ)، السيرة النبوية للصلاحي (٣٢٥هـ).
- د - كتب الغزوات والسرايا: صالح الحديبية لباشميل ٥٩-٦٠، السرايا الخيرية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٧-٩٨، فقه السرايا للعيساوي ١٤٠ + ١٥٠، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشالية ليريك ١١٣-١٣٠.

خَرَائِطُ سَرِيَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ   إِلَى بَنِي سَعْدٍ بِفَدَكٍ



أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٢.

وينظر خرائط سريّة محمد بن مسلمة   إلى نجد.